المقدمة

الحمد لله الذي هدانا إلى الإسلام ذلك الدين القيم الذي ارتضاه سبحانه وتعالى ليكون خاتم الأديان وتكون رسالته هي نهاية الرسالات للعباد فلا دين بعده.

لقد كانت الأمم قبل الإسلام تواقة إلى الخلاص من الذل والهوان الذين استعملهما كل من أباطرة الروم وأكاسرة الفرس ضد شعوبهم، فعندما بزغ الإسلام أعطى عطاء باذخا أسعد القلوب وأيقظ العقول، لذا كان نبراس الحضارة العربية والإسلامية سعادة للفرد وطمأنينة له.

وقد بلغت الدول العربية الإسلامية أوج عزها ومنعتها في أقل من قرنين من الزمان، وبهذا تحدت وبجدارة كل الدول التي كانت لها تاريخ وحضارة. فقد وصل الرواد والتجار العرب والمسلمون إلى الصين شرقا وإلى المحيط الأطلسي غربا وتغلغلوا في إيطاليا وفرنسا، مما جعل نتاجهم في مجال علم الجغرافية لايستغنى عنه باحث في هذا الحقل.

ولايخفى على القارىء أن إضافات المسلمين في هذا الحقل هي وجه من أوجه الحضارة المتعددة، لاتظهر فجأة مقطوعة من جهود الأمم السابقة، بل الحقيقة أنها تنتقل من أمة إلى أخرى، وفضل كل أمة يبرز فيما تضيفه إلى هذا التراث العظيم.

إن دراسة تطور علم الجغرافيا يخبرنا بصفة خاصة بتقدم الفكر الإنساني عبر العصور، لذا يلزم الجغرافي المثقف ألا يبدأ دراسته الجغرافية من حيث انتهى سلفه، ولكنه يجب أن يبدأ من أول الأسس لكي تكون نظرته جذرية.

القارىء اللبيب يدرك أنه بينما كانت الأمة العربية والإسلامية ترفع علم المعرفة والفكر عاليا كان العالم في ظلام دامس وأوروبا خاصة تعيش في جهل وتخلف فعندما أحبت أن تزيح عن عاتقها هذه المهانة وجدت أنه لامندوحة من

الـدراسـة والبحث والتنقيب في نتـاج علماء العـرب والمسلمين الأوائل في علم الجغرافية للنهل من رحيق هذا المنهل العذب.

ولقـد اهتم علماء العـرب والمسلمين بعلم الجغرافية اهتماما كبيرا لأنهم كانوا يفهمون تماما ما قرره القرآن الكريم من أن الإنسان هو خليفة الله في أرضه وهو المسؤول الأول عن عمارة هذا الكوكب، لذا درسوا وصححوا الأخطاء التي وقع فيها العلماء البابليون والآشوريون والمصريون واليونان والرومان والصينيون واهنود والفرس. كما اعترفوا بفضل العلماء السابقين.

وقد حاول بعض المستشرقين مثل دي جويه، وريجيس بلاشير، و هـ. درمون، وأغناطيـوس كراتشكوفسكي، وكمبل (Kimble)، وسكوى (Achoy)، وجب (Gibe)، وبالنثيا (Palencia) ورينو (Reinauld)، وبارتولد (Bartold)، وفستنفلد (Wusienfeld)، وسارتون (Sarton) أن يقدموا دراسات جيدة لعدد قليل من علماء العرب والمسلمين في ميدان علم الجغرافيا لكي يستفيد علماء الغرب، لهذا السبب رأينا من واجبنا إماطة اللثام عن عدد أكبر من العلماء الذين يمثلون أسلوبا أصيلا في هذا الحقل لكي يطلع عليه شباب أمتنا.

الحقيقـة أن بعض المستشرقـين بذلـوا جهـدا يشكـرون عليه في التنقيب والتمحيص لكتب الجغـرافية العربية والإسلامية، وذلك في سبيل البحث عن إسهامات علماء العرب والمسلمين في هذا المجال، فهم بدون شك الذين بدأوا هذه الحركة العلمية التي دفعت القليل من علماء العرب والمسلمين أن يكتبوا في هذا الموضوع كتابات ذات بال.

لقـد شعرت بمرارة شديدة لاهتمام المستشرقين بدراسة تراثنا الجغرافي التليد ليطلعـوا وينهلوا من المعارف التي خلفها الأجداد ونحن في سبات عميق، بينما مثقفـونـا وطـلابنـا في أمس الحاجة لكتاب عن رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية ليكون مرجعا لهم في هذا المجال الهام.

نسمـع أن فاسكـو دي جاما عرف الطريق الموصل إلى الهند وأن كريستوفر كولومبوس كشف العالم الجديد (أمريكا)، وأن ماجلان سمى المحيط الهادي بهذا الاسم وطاف حول الكرة الأرضية وننسى أنه ماكان يمكن أن يتحقق شيء من ذلك لولا المعارف الجغرافية التي حصل عليها هؤلاء المغامرون من مصنفات علماء

العرب والمسلمين الأوائل عن الأرض.

هنا أحب أن أؤكد على ضرورة إحياء التراث العلمي العربي والإسلامي مع عدم الانصراف عن العلوم الحديثة، لأننا نحس أن النشء العربي والإسلامي في حاجة ملحة إلى معرفة مآثر الأجداد ليس فقط في ميدان علم الجغرافية ولكن أيضا في ميادين العلوم والفنون المختلفة.

إن كتابنا (رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية) محاولة متواضعة لعرض تطور علم الجغرافية العربية والإسلامية على مدى فترة العصور الإسلامية الزاهرة، وكما بذلنا قصارى جهدنا أن نقدم الظواهر الطبيعية بصورة ميسرة للقارىء، وأن نرتب وننظم نتاج أعمال مشاهير علماء العرب والمسلمين في هذا المجال بطريقة تضاهي المنهج العلمي الحديث الذي اتسعت آفاقه وذلك بتجهيز أدق الآلات لبلوغ صورة من صور الكمال.

هناك حقيقة أريد أن أذكرها وهي دراسة النصوص الجغرافية لنتاج علماء العرب والمسلمين التي لاتزال باقية غير مدروسة دراسة علمية دقيقة. ومثل هذه الدراسة تحتاج للمتخصص في علم الجغرافية لكي يسبر غورها، ولاريب أن إلقاء الضوء على النصوص الجغرافية سيقودنا إلى فهم الكثير من الأفكار والنظريات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها. إن مثل هذه الدراسة أصبحت ضرورية في هذه الأيام.

تفتقر المكتبة العربية إلى مؤلفات علمية في علم الجغرافية تربط التراث القديم بالأفكار الجغرافية الحديثة. لذا أؤمل أن يسد كتاب (رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية) ولو بصورة جزئية هذا النقص في المكتبة العربية والإسلامية.

يقع الكتاب في عشرة فصول: أولها التعريف بعلم الجغرافية، والثاني يلقي نظرة موجزة على إسهام قدماء المصريين في علم الجغرافية، والثالث يسجل نتاج علماء بابل في هذا الموضوع والرابع لمحة تاريخية عن مكانة الفينيقيين في هذا المجال، والخامس يلخص جغرافية الهنود والفرس، والسادس يشمل أعمال الصينيين في هذا الحقل، والسابع يختص بجهود اليونانيين في علم الجغرافية، والثامن يصف أعمال الرومانيين الجغرافية، أما التاسع فيعرض نتاج علماء العرب

والمسلمين في علم الجغرافية وآثارها على النهضة المعاصرة في العالم في مختلف ألوان الفكر الجغرافي، في حين يتناول العاشر سير بعض مشاهير علماء العرب والمسلمين في علم الجغرافية.

أحب أن ألفت نظر القارىء العزيز إلى ملاحظات ذات أهمية كبيرة، تتعلق بسرد المراجع التي اعتمدت عليها في تأليف هذا الكتاب، فلقد أحببت أن أضع المراجع بجانب النص، أو الفكرة المقتبسة بين علامتي تنصيص، وفاء بحق الأمانة العلمية، مع طباعة اسم الكتاب بالأسود لإبرازه للقارىء، وقد تبينت أن هذه الطريقة أسهل للقارىء بدلا من أن يجد نظره موزعا بين متن الكتاب وهامشه، ويمكن للباحث الذي يريد الاستزادة أن يعود بنفسه إلى المصادر التي أشرت إليها وذللتها له، وجعلتها بين يديه دانية القطوف، والجدير بالذكر أن هذه الطريقة هي بالضبط الطريقة التي استخدمها مشاهير علماء العرب والمسلمين في العلوم، وهي في نظرنا طريقة جيدة جدا، بل موضوعية، لأن التوثيق فيها حاصل وبارز للباحث الذي يريد أن يستزيد.

أرجو أن أكون قد وفقت بعملي هذا ـ الذي أرجو من الله تعالى أن يكون مفيدا ـ في إبراز معالم نهضة أسلافنا وطرقهم العلمية في تناولهم الأفكار الجغرافية.

والله الموفق

علي بن عبدالله الدفاع

الظهران ـ المملكة العربية السعودية

محرم ـ ١٤١٠هـ